١٧

الصراع بين العرب والاستعمار
في
عصر التوسع الأوربي الأول

حصاد
(٢)

ندوة
عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة
٢٥-٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ
٢٨-٢٩ نوفمبر ١٩٩٤ م

المحتويات

جدة فى مواجهة الخطر البرتغالى

خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى

(السادس عشر الميلادى)

د. غيثان بن على بن جريس(×)

تميزت جدة ، منذ صدر الإسلام ، بأنها ثغر مكة المكرمة المطل على البحر الأحمر ،كما أنها معبر للمسلمين الذين يفدون بحرًا إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة . وأدى هذا وذاك إلى إزدهار النشاط التجارى لهذا الميناء طيلة العصور الإسلامية(١) .

(×) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة الملك سعود ، فرع أبها .

(١) للمزيد من التفصيلات عن أهمية ميناء جدة منذ صدر الإسلام، انظر محمد عبد الله الأزرقى ، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار،** تحقيق رشدى ملحس (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ج٢ ص٧٦، ٨٠، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢، تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام،** تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) ج١، ص٨٦ - ٨٨، عبد القادر بن أحمد بن فرج، **رسالة فى تاريخ مدينة جدة، السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة،** تحقيق محمد عيسى الصالحية (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، ١٩٨٣م) ص٤٠ وما بعده ، عبد القدوس الأنصارى، **موسوعة تاريخ مدينة جدة** (القاهرة : دار مصر للطابعة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٧٥ وما بعدها ، على بن حسين السليمان." ميناء جدة فى القرن التاسع" **مجلة العرب.** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج١٢، ص٩٣٥ ، ٩٤٩،

G. R. Hawting. "The Origin of Jeddah and the Problem of al - Shuayba" **Arabica** Vol. XXXI (1984) PP. 318- 326.

ونظرًا لهذه الأهمية على مدار تاريخها الإسلامى ، خاصة منذ القرن الثالث الهجرى وحتى نهاية القرن التاسع الهجرى (القرن التاسع الميلادى وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) فإن هذا الميناء فى حاجة إلى مزيد من عناية الباحثين بقدر من الأفاضة والتفصيل(٢) .

أما سبب اختيار الباحث أن يلقى الضوء على أهمية جدة ، فى أواخر العصر المملوكى ، فيرجع إلى أن هذه الفترة يواكبها التهديد الأوربى للمسلمين وهو التهديد الذى استهله البرتغاليون الذين تصاعدت أطماعهم بدءا بالسعى إلى

---

(٢) وللإطلاع على معلومات أكثر عن أهمية ميناء جدة فى البحر الأحمر خلال القرون الإسلامية الوسيطة، وكيف كانت تجد الاهتمام والرعاية من خلفاء وسلاطين وأمراء المسلمين فى كل من الحجاز، والشام، ومصر ، والعراق ، انظر . الأزرقى، **أخبار مكة**، ج٢، ص٧٦، ٨٠، ٣٢٣، ٣٢٧، محمد بن محمد عبد الله الأدريسى، **كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق** (بيروت : عالم إلكتب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ج١، ص١٣٨ - ١٣٩، جمال الدين يوسف بن المجاور، **بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى: - تاريخ المستبصر.** تحقيق أوسكر لوفغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١م) ج١، ص٤٠- ٤٨، الفاسى، **شفاء الغرام**، ج١، ص٨٧ وما بعدها، قطب الدين المكى النهروالى. **كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام** (بيروت : مكتبة خياط، ١٩٦٤م) ص٧٩، أحمد عمر الزيلعى **مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧هـ)** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨١م) ص١٧٧ - ١٨١، حسنين محمد ربيع. "وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى)، **الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية.** (الرياض ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) مج١، ج١، ص١٣٥ الأنصارى ، **موسوعة تاريخ مدينة جدة ص٧٧ وما بعدها،**

A. Pesce : **Jiddah: Portrait of an Arabian City** (London, 1974) P. 17; S. D **Goitein. A : Mediterranean Society** Encyclopaedia of Islam, New ed. Vol. 2, p. 572. mann (rev - P. A. Marr) "Djudda'

إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح فيما بعد) وحتى محاولتهم تطويق العالم الإسلامي وخنقه اقتصاديًا والقضاء على هويته من حيث الدين واللغة والحضارة(٣) . وقد حاول الغرب الأوربى ذلك عن طريق السيطرة على تجارة الشرق الأقصى واحتكارها ومنع وصولها إلى بلاد المسلمين ، ثم محاولة الوصول إلى قلب القارة الأفريقية عن طريق البحر ، وتحويل التجارة عن طريق البحر الأحمر وطريق القوافل إلى الطريق البحرى حول أفريقية ، وإلى موانى المحيط الأطلسى . وجاء هذا النشاط مصحوبًا بالرغبة فى أحياء الروح الصليبية والإنتقام من

---

(٣) ولمعرفة الطرق والأساليب التى قام بها البرتغاليون للإلتفاف حول أفريقيا والوصول إلى شواطئ الهند، ثم مهاجمة المسلمين فى كل من الخليج العربى والبحر الأحمر، انظر. يحيى بن الحسين بن القاسم : **غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني.** تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) جـ٢، ص٦٢٩ وما بعدها، عفيف الدين أبو محمد عبد الله باتخرمة. البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه: - **نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات بامخرمة كما سجلها فى مخطوط "قلادة النحر"** دراسة وتحقيق محمد عبد العال أحمد (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م) ص٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول عبد ربه . "البرتغاليون والبحر الأحمر "**سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة** (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٢٠٥ - ٢٢٢، ويوجد ضمن هذا السمنار دراسات جيدة تفيد القارئ فى معرفة ما بذله البرتغاليون من جهود عدائية تجاه المسلمين. وفى الجزء الثانى من أبحاث: - **ندوة رأس الخيمة التاريخية، والمنعقدة فى (٥ - ٧ محرم ١٤٠٨ هـ/ ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧م)** العديد من الأبحاث القيمة التى تصور هجمات البرتغاليين على الخليج العربى، والسواحل الأفريقية.

المسلمين(٤) لذلك حرصوا على الإتصال بالمسحيين فى الشرق وخاصة الأحباش النصارى ، وإماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا Prester John(٥) وتحويل العناصر الوثنية فى الشرق إلى المسيحية(٦) ولذلك خططوا للتعاون مع مسيحى

---

(٤) وللإطلاع على تفصيلات أكثر عن الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى، انظر، سعيد عبد الفتاح عاشور. **أوربا فى العصور الوسطى، التاريخ السياسى** (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦م) جـ١، ٤٣٦، - ٤٦٤، وللمؤلف نفسه، **الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى** القاهرة، ١٩٧٥م) جزءان.

(٥) كلمة (**Prester**) بمعنى القس ، والقديس يوحنا شخصية خرافية، كان أهل أوربا يعتقدون بوجودها، وأنه يحكم إمبراطورية واسعة فى آسيا. غير أن أهل أوربا فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)وجدوا أن المقصود بهذه الشخصية ملك الحبشة المسيحى. وللمزيد من التفصيلات انظر. شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه. **تحفة الزمان أو فتوح الحبشة.** نشره مع مقدمة بالفرنسية رينيه باسيه، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، الهية المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص٤٠، وما بعدها، إبراهيم على طرخان : **البرتغاليون فى غرب افريقيا القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٧م ص٤١،**

S. Bovil : The **Golden Trade of the Moors** (London, 1962) PP. 92ff.

(٦) المعروف أن دولة أكسوم (الحبشة) اعتنقت المسيحية منذ القرن الأول الميلادى، وعملت جاهدة على نشر المسيحية بين الوثنيين فى افريقيا منذ ذلك التاريخ وإزداد نشاطها بعد ذلك بدعم من بيزنطه، فظلت الحبشة من ذلك الوقت على تعصبها الشديد لمسيحيتها، ويقول المقريزى: - والحبشة يتشددون فى ديانتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكانية من النصارى. ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام بالحبشة من جميع الجهات تقريبا، كما كان من أهداف المسلمين نشر الإسلام فى تلك الرقعة بين الوثنيين مما شكّل الباعث الأكبر على الحروب التى نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التى جاورتها. وجاء البرتغاليون بعد ذلك وظهرت أهدافهم الصليبية عندما وقفوا مع الحبشة فى هذا الصراع، انظر، **المقريزى الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** (مصورة عن نسخة بالاسكوريال، ص٣، عبد المجيد عابدين . **بين العرب والحبشة،** القاهرة : د.ن، ١٩٥٩م) ص١٤.

الحبشة لمحاربة المسلمين فى منطقة القرن الأفريقى (دول الطراز الإسلامى السبع وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية)(٧) ؛ ثم التوصل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية ، وخاصة ثغر جدة الذى يقودهم إلى مقدسات المسلمين فى الحجاز ليتمكنوا من تدميرها والثأر من المسلمين(٨) .

---

(٧) وقد وصف القلقشندى هذه البلاد الافريقية بقوله: "... البلاد المقابلة لبر اليمن على بحر القلزم، وما يتصل به من بحر الهند، ويعبر عنها بالطراز الإسلامى لأنها على جانب البحر كالطرازله". وقد تكونت إمارات الطراز الإسلامى هذه نتيجة زيادة عدد المسلمين فى هذه المنطقة ذات الأهمية البالغة فى تجارة البحر الأحمر . وقد تبلور الوجود الإسلامى بهذه المنطقة من الناحية السياسية فى سبع إمارات ظهرت مع بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وهذه الإمارات هى : - أوفات ، ودواردو ، وارابينى ، وهديا ، وشرخا ، وبالى ، وداره . وقد تأرجحت ما بين التبعية السياسية لملك الحبشة والإستقلال عنه ، بل ومحاربته أحيانًا . وكانت إمارة أوفات هى أقواها جميعًا . وقد شهدت القرون الثامن ، والتاسع ، والعاشر الهجرية (الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر الميلادية) سلسلة من المعارك بين الحبشة ودول الطراز الإسلامى بسبب التنافس للسيطرة على المراكز التجارية فى داخل الحبشة وميناء زيلع على الساحل الصومالى . وإستعان مسلمو الحبشة بدولة المماليك ، ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق لم يتح لمصر أن تقدم أى مساعدة فعالة لهم ، كما إستعان الأحباش النصارى بالأوربيين . لمزيد من التفصيلات انظر أحمد بن على القلقشندى . **صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء** (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، د. ت) جـ٥ ، ص ٣٢٤ - ٣٣٠ ، تقى الدين أحمد المقريزى . **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** . (القاهرة : د. ن، ١٩٧٢م) ص ١٢٥ وما بعدها .

(٨) كانت البابوية قد حرصت منذ القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) على تقوية صلتها بدولة الحبشة المسيحية فقام وليم آدم ، الراهب الدومينيكانى الذى اختاره البابانيقولا الرابع عام ١٣٠٥م للتبشير فى الشرق برحلة طويلة زار أثناءها الحبشة ، ثم عاد إلى

وهكذا نجح البرتغاليون فى النزول على شواطئ بلاد الهند فى مطلع القرن العاشر الهجرى (أواخر القرن الخامس عشر الميلادى)، وبالتالى أخذوا فى تذليل الصعاب التى تعترض وصولهم إلى البحر الأحمر، ثم الأماكن المقدسة فى الحجاز عن طريق ثغر جدة. وسوف نركز حديثنا فى هذا البحث على الحملات التى قادها نواب ملك البرتغال فى الهند على ميناء جدة فى الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) مع العناية بايضاح الأساليب العدوانية الصليبية التى اتبعوها فى مواجهة المسلمين ومحاربتهم . هذا مع العناية بإبراز رد

أوربا فى عام ١٣١٦م ، بعدما نجح فى تحقيق أهدافه ومنها تدعيم علاقات التعاون بينهما ، مثلما نجح فى إستثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين ، وبالتالى جذب هؤلاء الملوك إلى داخل دائرة الحرب الصليبية . وقد قويت الاتصالات الحبشية البرتغالية ضد العالم الإسلامى ممثلاً فى دولة المماليك فى مصر بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وبعد هزيمة الأسطول المصرى فى ديو عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) ، أرسلت هيلانه ملكة الحبشة رجلاً أرمينيا يدعى ماثيو على رأس سفارة عام (٩١٦هـ / ١٥١٠م) إلى إمانويل (عمانويل) ملك البرتغال لمفاوضته من أجل التحالف ضد المسلمين . وقد لقبته فى رسالتها بلقب (قاهر المسلمين) واظهرت فى رسالتها الرغبة الملحة من أجل التعاون لكى تصل جنودها مع الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة المكرمة ، وتحطيم الكعبة ، وإغلاق البحر الأحمر من الطور شمالاً ، ومن باب المندب جنوبًا . وللمزيد من التفصيلات عن العلاقة بين الأحباش والقوى الأوربية ، انظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه (بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى) **مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية** ، عدد (١٤) (١٩٦٨م) ،

F.F. Alvarez. **(A Portuguese) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During. the Year 1520 - 1527.** Translated by LordStanley (London, 1881) pp. 311 - 313, 393 ff; A.S. Atiya. **The Crusade in theLater Middle Ages** (London , 1938) pp. 161 - 162.

فعل المسلمين على تلك الهجمات البرتغالية ، وخاصة من جانب سلاطين المماليك فى عهد آخر سلاطينهم قانصوه الغورى (٩٠٦هـ / ١٥٠١م - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) هذا بالإضافة إلى دور بعض مسلمى الهند واليمن والحجاز والعثمانيين فى الأستانة، على أن ننهى البحث بإبراز بعض الآثار السلبية على ثغر جدة من خلال الصراع الإسلامى البرتغالى فى تلك الحقبة .

* * *

سعى البرتغاليون فى إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح)(٩) ، تحت تأثير العامل الإقتصادى والرغبة فى الوصول عن طريق -غير طريق المسلمين- إلى ثروات الشرق . لكن العامل الدينى وراء هذه الحركة كان لا يقل أهمية عن الدافع الاقتصادى . وقد ظهر ذلك جليًا فى تشجيع بابا روما لملك البرتغال إمانويل (Emmanual) ٩٠١هـ / ١٤٩٥م - ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) الذى أطلق عليه اسم "سيد الملاحة والفتح والتجارة فى أثيوبيا وبلاد العرب وفارس

---

(٩) بار ثملميوديازالذى وصل عام (٨٩٢هـ / ١٤٨٦م) إلى خليج الجو(**Algoa**) على الشاطئ الجنوبى الشرقى لأفريقيا بعد أن دار حول القارة ، هو الذى أطلق على راس القارة من الجنوب اسم رأس العواصف (**Cabo Termentoso**) ، وجاءت تسميته هذه نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التى تهب على هذه المنطقة تحدث أصواتًا عنيفة . ولكن ملك البرتغال حنا الثانى غير الاسم إلى (رأس الرجاء الصالح) وذلك تفاؤلاً بقرب الوصول إلى الهند . وللمزيد انظر :

J.Fage, **An Atlas of African History** (Cambridge, 1958) pp. 26 - 27; H.H. Johnston, **A History of the Colonization of Africa by Allien Races** (Cambridge, 1913) pp. 80 - 81, 99.

والهند"(١٠) بل إن ملك البرتغال نفسه أشار في بعض خطاباته أثناء إرسال البعثات الكشفية الأولى إلى الهند ، إلى أن الهدف الأساسي من إرسالها هو نشر المسيحية والحصول على الثروات(١١) .

وقد وجه البرتغاليون في بادئ أمرهم حملاتهم الكشفية إلى بلاد الهند. وبعد أن دانت لهم السيطرة البحرية على أجزاء هامة في المحيط الهندي ، كشفوا عن وجههم فقاموا بإعتداءات على مسلمي الهند انتهكوا فيها أعراضهم ، ومنعوهم من الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ودمروا مساجدهم وأحرقوا مصاحفهم(١٢) . وقد أشار صاحب تحفة المجاهدين إلى أنهم أثاروا الرعب في قلوب الناس ، ونشروا الخراب والدمار في أنحاء البلاد(١٣) . وأضاف النهرواني (من مؤرخي القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي) أنهم كانوا "يقطعون

---

(١٠) وقد استمر هذا اللقب يطلق على ملك البرتغال فترة من الزمن بعد ذلك ، وهو يعكس الدوافع الحقيقية للنشاط البرتغالي ، الذي حظي بمباركة وتشجيع هذا البابا ، الذي حاول أن يقوم بدور مشابه للدور الذي قام به البابا أوربان الثاني إبان الإعداد للحملة الصليبية الأولى . انظر سعيد عاشور ، **أوربا في العصور الوسطى** ، جـ ١ ، ص ٢٦١،

T.F.Tout. **The Empire and the Papacy** (London,1942)pp.137 - 139 .

(١١) انظر السيد مصطفى سالم . **الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م.** (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤م) ص ٤٦، وما بعدها .

R.B. Serjeant: **The Portuguese of the South Arabian Coast** (Oxford, 1963) pp.2 - 3; Pestage. **The Portuguese Pioneers** (London,1933)pp.267 - 268.

(١٢) انظر ، زين الدين المليباري . **تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين** (لشبونة: د. ن، ١٨٩٨م) ص ٤٤ – ٤٥ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ – ٤٦ . انظر أيضًا محمود سمره (الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق افريقيا) **مجلة العرب** ، العدد (٥٩) (الكويت ، ١٩٦٣م) ص ١٣٢ .

الطريق على المسلمين أسرا ونهبًا ويأخذون كل سفينة غصبًا إلى أن كثر ضررهم على المسلمين"(١٤) .

وهكذا واصل البرتغاليون تغلغلهم البحرى ، لاحكام الحصار على العالم الإسلامى من ناحية، والسيطرة على التجارة الشرقية، من ناحية أخرى . كما سعوا إلى تنفيذ أطماعهم ، فأسندوا إلى القائد البرتغالى الفونسو دالبوكيرك (Alfanso D'Albuquerque)(١٥) مهمة السيطرة على مدخل البحر الأحمر. وإستطاع دالبوكيرك إعداد حملة عسكريةسيطرت علىجزيرةسقطرى(Socotra)

---

(١٤) قطب الدين النهروانى . **البرق اليمانى فى الفتح العثمانى** (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ١٨ - ١٩ .

(١٥) الفونسو دالبوكيرك استهل حياته العسكرية البحرية فى الهجمات البرتغالية على سواحل المغرب ، ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبى فى بحار الشرق. كلفه ملك البرتغال إمانويل الثانى بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة فى الشرق ، فعلق البوكيرك أهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة وقام ببناء حصون فى هرمز ومسقط والبحرين . وقد انيط إليه قيادة الأسطول البرتغالى فى بحار الهند ، ثم قاد أول حملة فى الخليج العربى على هرمز فى عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) حتى تولى منصب نائب الملك فى الهند خلفًا لفرانسيسكو دى الميدا(Francisco de Almeda) . وفى عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) توفى فى مقره فى حوا الواقعة على ساحل ملبار والمطلة على بحر العرب) انظر جمال زكريا قاسم . **الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الحديث)** (القاهرة : دار الفكر العربى ١٩٨٥م) ص ٥٢ - ٧٢ .

Serjeant, **The Portuguese,** p. 43, T. Wilson Arnold: **The Persian Gulf: An Historical Sketch from the Earliest times to the beginning of the Twentieth Century** (London, 1945) pp.125ff.

فى عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧م، (١٦) مما جعلهم على مقربة من ميناء عدن الذى يفتح الطريق أمامهم إلى مدخل البحر الأحمر، وبالتالى يشقون طريقم إلى ثغر جده(١٧).

وفى تلك المرحلة ، كانت الأوضاع مضطربة فى جنوب شبه الجزيرة العربية، مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر، إذ اشتد الصراع بين عدة قوى متصارعة كانت فى غفلة عن الخطر البرتغالى الذى ألم بالمنطقة ، وغلبوا مصالحهم العائلية الوراثية على الصالح العالم للأمة الإسلامية .

فكانت هناك سلطنة الطاهريين السنية الشافعية وعاصمتها زبيد ، وقد بسطت سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن الكبيرة فى اليمن بما فيها تعز وصنعاء وعدن ومخا . أما فى حضرموت إلى الشرق من دولة الطاهريين فقامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبيًا هما : سلطنة اليمنيين وعاصمتها تريم ، وسلطنة

---

(١٦) انظر السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ٥٤ وما بعدها ،

Serjeant, **The Portuguese** p. 136.

وجزيرة سقطرى تقع بالقرب من جنوب الجزيرة العربية وإلى الشرق من عدن ، وهى جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ، ولكن لها اهمية إستراتيجية لمن يريد التحكم فى مدخل البحر الأحمر .

(١٧) بامخرمة : **البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه**. تحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول (البرتغاليون والبحر الأحمر) ، ص ٢٠٧ وما بعدها . بشير حمود كاظم : التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر ؛ **أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ٥ - ٧ محرم (١٤٠٨هـ / ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧م) العلاقة بين الخليج العربى وشرق أفريقيا** . جـ ٢ (رأس الخيمة : مركز الدراسات والوثائق فى الديوان الأميرى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ص ١٠٣ - ١٢٣ .

الكواسر وعاصمتها الشحر . هذا بالإضافة إلى عدد من الحكام المحليين وأمراء القبائل الذين استقلوا تمام الإستقلال ، مثل حكام لحج ومهرة وظفار ، فضلاً عن الزيود والإسماعيليين فى المناطق الجبلية الشمالية فى اليمن(١٨) .

وبذلك لم يبق فى الشرق الأدنى سوى دولة المماليك كقوة إسلامية تتحمل وحدها عبء الحفاظ على سلامة البحر الأحمر وحمايته كبحيرة إسلامية من أى خطر صليبى جديد . وكان إن إرتفعت صيحات المسلمين من كل جانب تطلب النجدة من السلطان المملوكى قانصوه الغورى ، وعلى الأخص الصيحات التى انبعثت من مسلمى الهند وبعض أهالى بلاد اليمن(١٩) .

ولم يكن السلطان الغورى أقل إحسلساً بالخطر الجديد ، وبخاصة بعدما انكمشت ايرادات دولته من تجارة الشرق التى أخذت تتحول عن طريق مصر والبحر الأحمر إلى طريق المحيط ورأس الرجاء الصالح . لذلك أرسل الغورى تهديده

---

(١٨) وللمزيد من التفصيل انظر ، النهروانى . **البرق اليمانى** ، ص ١٦ وما بعدها ، نيقولاى أيفانوف . **الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤** . ترجمة يوسف عطا الله (بيروت : الفارابى ، سلسلة تاريخ المشرق العربى الحديث ، ١٩٨٨م) ص ١٢٠ - ١٢١ بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٦ - ١١٨ .

(١٩) مما لا شك فيه أن الموقف كان صعبًا على دولة المماليك فى مصر ، لما كانت تعانيه عند ئذ من ضعف وتمزق فى آخر عهدها ، لكنها لم تعتذر عن مواجهة البرتغاليين لأنها حتى ذلك الحين لازالت تدعى حمايتها للحرمين الشريفين فى الحجاز ، كما أن مسلمى الهند وغيرهم وجهوا إليها الإستغاثة وطلب النجدة والحماية من البرتغاليين . كذلك كان المماليك أكثر من سيقع عليهم الضرر من جراء هذا الزحف البرتغالى بسبب التهديد التجارى لهم ، وبسبب سيطرتهم على الموانئ الرئيسية فى البحر الأحمر ، لذلك وجب أن يكون رد فعلهم أسرع من أى قوة إسلامية أخرى .

وتحذيره إلى ملوك أوربا يطلب منهم العمل على أيقاف الأعمال الوحشية والتوسعية التى يقوم بها البرتغاليون فى البلاد الإسلامية وبحارها . بل لقد حذرهم فى بعض رسائله ، بأنه سيقوم بعمل مماثل نحو رعاياهم من النصارى القاطنين فى الديار المصرية والشامية وغيرهما من أملاك الدولة المملوكية.....على أن تهديدات الغورى لم تجد أذنًا صاغية من ملوك أوربا ولم يأبهوا لها(٢٠) . كذلك اتصل السلطان الغورى بالبنادقة فطلب منهم تزويده بالأخشاب والمؤن اللازمة لبناء أسطول يواجه به البرتغاليين ، لكنهم امتنعوا عن نساعدته خوفًا من غضب البابوية عليهم(٢١) . ويثبت إمتناعهم هذا أن الحرب التى قامت بها البرتغال فى الشرق كانت حربًا صليبية جديدة ضد المسلمين تدعمها البابوية وملوك أوربا ومدن إيطاليا البحرية .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو تباطىء المماليك الذين لم يبدأوا الإستعداد لمواجهة البرتغاليين إلا فى عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، مع العلم بأن القوات البرتغالية وصلت إلى الهند ، وشرعت فى تهديد المسلمين وتجارتهم هناك

---

(٢٠) انظر المليبارى ، **تحفة المجاهدين** ، ص ٤٠، النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص١٩، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** . تحقيق محمد مصطفى (القاهرة : عيسى الحلبى ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣م) جـ ٤، ص ١٨٢ ، السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ٦١

Duarto Barbosa. ADescription of the Coast of East Africa and Malabar in the Beginning of the Sixteerh Century, tr. by. Henry Stanley **(London,**1866)pp.50 - 51.

(٢١) للمزيد من التفصيلات عن دور البنادقة فى الصراع الإسلامى الأوربى فى عهد دولة المماليك ، انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٧٧ وما بعدها .

منذ مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وربما لم يدرك المماليك حقيقة الخطر البرتغالى إلا بعد أن أخذ هذا الخطر يتغلغل فى البلاد ، أو أنهم أعتقدوا بأنه لن يكون هناك تهديد لهم أو لتجارتهم ما دام الطريق البحرى عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندى فى مأمن من التهديد البرتغالى . هذا إلى أن المماليك كانوا غارقين فى مشاكلهم الداخلية بعد أن دخلت دولتهم دور الإحتضار . ومن يتتبع الأوضاع السياسية فى ذلك الدور يلمس عدم الإستقرار فى سياسة الدولة لكثرة الفتن والثورات الأهلية ، إلى جانب الفوضى والفساد الإدارى الذى عم دولة سلاطين المماليك فى تلك المرحلة(٢٢) .

وكان أن اشتد تخوف المماليك من دخول البرتغاليين البحر الأحمر ومهاجمتهم موانيه ، وعلى الأخص ميناء جدة الذى يفتح الطريق أمامهم إلى الأماكن المقدسة . لذلك عزم السلطان قانصوه الغورى على إرسال حملة بحرية إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردى(٢٣) . ويذكر ابن إياس فى هذا الشأن أن

---

(٢٢) وللمزيد من التفصيلات عن تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية فى العقود الأخيرة من عصر الدولة المملوكية ، انظر ، إبراهيم على طرخان. **مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسه** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م) ؛ نعيم زكى فهمى . **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م) ص ١٣٠ وما بعدها ، على إبراهيم حسن . **تاريخ المماليك البحرية** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) .

(٢٣) الأمير حسين الكردى الذى تولى الإمارة للسلطان الغورى فى جدة،وعهد إليه طرد البرتغاليين من البحر الأحمر والمحيط الهندى حين كثرت تعدياتهم على المسلمين (وللمزيد من التفصيلات عنه ، انظر النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ١٩، وللمؤلف نفسه . **الأعلام بأعلام بيت الله الحرام**،ص ٣٤٥،وعبد القادر بن فرج.**السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة**،ص٥٣.

السلطان الغورى أطلق على هذه الحملة اسم "التجريدة المعنية إلى بلاد الهند" وأطلق على قائدها "باشا تجريدة الهند"(٢٤) ويفهم من عنوان الحملة ومن لقب قائدها أنها تستهدف حماية المياه الهندية ، ولكنها رابطت فى جدة لفترة تزيد عن العام لإحكام تحصيناتها ضد البرتغاليين الذين كانوا يتطلعون للوصول إليها وإلى مقدسات المسلمين فى الحجاز .

وهكذا أقلع الأسطول المملوكى من ميناء السويس فى ٦ جمادى الآخر من سنة ٩١١هـ الموافق الرابع عشر من نوفمبر لسنة ١٥٠٥م(٢٥) ، وكان هذا الأسطول مؤلفًا من ثلاث عشرة سفينة . ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة عدد جنود الحملة ، وإنما أشارت إلى أنهم كانوا من المماليك السلطانية ، وعدد من أولاد الناس(٢٦) الذين يجيدون إستخدام الأسلحة النارية ، كما كان المغاربة

---

(٢٤) انظر ابن إياس بدائع الزهور ، جـ ٥، ص ٢٠٣ ، وللمزيد من التفصيلات عن هذه الحملة انظر باخرمة . **البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧٠ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم . **غاية الأمانى** ، جـ ٢ ، ص٦٣٤ وما بعدها ، النهروانى **البرق اليمانى** ، ص ١٩ وما بعدها .

(٢٥) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٨٤ - ٨٥ .

(٢٦) والمقصود بأولاد الناس فرقة خاصة من أبناء الأمراء المماليك المتوفين حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع مرتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى بشرط أن يندرج فى الرديف السلطانى ويكون صالحًا للخدمة فى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم . انظر القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، جـ ٤ ، ص١٥، محمد مصطفى زيادة . **المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى** (القاهرة : د.ن،١٩٥٤م) ص٢٤، ٤٧.

يؤلفون أغلب أفراد تلك الحملة لأنهم كانوا ذوى خبرة فى القتال البحرى وإستخدام المدافع فضلاً عن كونهم بحارة ماهرين(٢٧) .

ويذكر ابن إياس أن حملة الأمير حسين الكردى التى ودعها السلطان الغورى من القاهرة إتجهت إلى السويس فى طريقها إلى جدة؛ وأنها اصطدمت ببعض أعراب بنى إبراهيم حول ينبع فقتلت عددًا كبيرًا منهم ، واحرق رجال الحملة بعض الدور التى تقع على ساحل البحر الأحمر فى ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشتتوا عربان قبائل بنى إبراهيم(٢٨). ودفع هذا الشيخ عبد القادر بن فرج ، من سكان جدة ، إلى الإعتقاد بأن السبب الرئيسى من وراء حملة الكردى إلى جدة وتحصينها هو

---

(٢٧) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، حـ ٤ ، ص ٨٤ - ٨٥، ٩٦، السيد مصطفى سالم. **الفتح العثمانى** ، ص ٦١.

(٢٨) انظر ابن إياس ؛ **بدائع الزهور** ، حـ٤، ص ٩٥ وما بعدها . ويذكر أن بنى إبراهيم من أشهر القبائل التى كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة المكرمة ، وكانت السلطات المملوكية فى مصر توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية فى بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة. وفيما بين سنة ٩٠٧هـ وسنة ٩١١هـ قام هؤلاء الأعراب بكثير من السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام ، بل تكررت هجماتهم على التجار فى كل من ثغر حدة ومكة المكرمة . وقد استفحل أمرهم فى سنة ٩١١هـ لدرجة أن السلطان الغورى أمر بايقاف التوجه إلى الحج فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار حتى يقوم بتأمين طريق القوافل من شر هؤلاء المفسدين . وللمزيد من التفصيلات ، انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، حـ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها ، عبد القادر بن محمد القادر الأنصارى الجزيرى . **الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** (الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) حـ ٢ ، ص ٧٨١ - ٧٩٣ .

حمايتها من أعراب بنى إبراهيم الذين أقلقوا حياة الناس فى هذا الثغر الحيوى بغاراتهم المتكررة عليه من عام (٩٠٧ - ٩١١هـ / ١٥٠١ - ١٥٠٥م)(٢٩) . وما أن وصل الأمير حسين الكردى إلى جدة حتى شرع فى بناء سور ضخم ذى أبراج عالية حول مينائها(٣٠) . ويبدو أنه بالغ فى بناء ذلك السور حيث أنه هدم كثيرًا من بيوت الناس التى تقع بالقرب من موضع السور واستخدام عامة الناس فى البناء زيادة على الأعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه إلى جدة ، حتى استطاع أن يتم بناء السور فى أقل من عام(٣١) .

وقد بذل الأمير حسين الكردى جهدًا كبيرًا من أجل إحكام بناء هذا السور حول ثغر جدة ، حتى صار حاجزًا منيعًا فى وجه البرتغاليين فى محاولاتهم العديدة لإختراقه والسيطرة على جدة . لذا نرى أن نتوقف قليلاً لنتناول بإيجاز وصفًا لهذا السور وكيفية وطريقة بنائه حتى نقف على مدى قوته وضخامته ومنعته ، والدور الذى قام به فى حماية جدة :

---

(٢٩) انظر ، عبد القادر بن فرج : **السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة** ، ص ٥٠ - ٥٤، وللمزيد من التفصيلات عن بنى إبراهيم وما قاموا به من خراب فى بلاد الحجاز ، انظر الجزيرى ، **الدرر الفرائد** ، جـ٢، ص ٧٨١ وما بعدها .

(٣٠) انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤، ص ٨٤ وما بعدها ، النهروانى ، **كتاب الأعلام** ن ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣١) وذكر أن الأمير حسين الكردى كان عقابه شديدًا على من يتهاون ويتقاعس فى عمله أثناء بناء السور ، سواء كان من العمال الذين جلبهم معه من مصر ، أو من سكان جدة القادرين على العمل والمساهمة فى البناء . انظر ، النهروانى ، **كتاب الأعلام** ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

يذكر عبد القاد بـن فـرج فـى مؤلفـه ، (السـلاح والعـدة فـى تـاريخ بنـدر جدة)(٣٢) وصفًا للسور فيقول : "وكان طول أساس السور فى الأرض إثنى عشـر ذراعًا ، وطول المحيط بالبلد من جهة القبلة واليمـن والشـام ثلاثـة آلاف ذراع مـن غير الأبراج ، وهى ستة أبراج ، دور كـل بـرج فيهـا ستة عشـر ذراعًـا بجدارة ، وعرض جدار السور أربعة أذرع . وأما الأبراج فطول الشامى واليمـانى مـن علـى وجه الأرض خمسة عشر ذراعًا ، والبرجان القبليان الملاصقان لبـاب البلـد المسـمى أحدهما بباب الفتوح وهو الأيمن والآخر بباب النصر وهو الأيسر ، وطولهمـا مـن على وجه الأرض أيضًا كذلك . أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون فى البحر اثنى عشر ذراعًا....."(٣٣) .

(٣٢) انظر ، ص ٥٥ .

(٣٣) وقد أشار عبد القادر بن فرج بأن المقصود بالأذرعـة المذكـورة هـو ذراع العمـل ويساوى ذراعًا ونصف بذراع النجار. انظر ، ص ٥٥٠ والمقصود بـالذراع النجـارى حسـب ما عرفه الملك المظفر الرسولى فى مخطوطه المخترع فى فنون من الصنع هو ، ثلاثـة أشـبار بـاليد ويساوى ٢٤ الأصبع ، والصبع عقد أنملة السبابة من الظاهر ، وكل ٨ أصابع مـن هـذا القيـاس شبرًا ، انظر المظفر الرسولى . المخترع فى فنون من الصنع مخطوط الآصفيـة(٢٢١) متفرقـات ، ورقة ٦٩. وفى كتاب الإيضاح والتباين فى معرفة المكيال والميزان لأبى العباس نجـم الدين بـن الرفعة الأنصارى ، ص ٧٧، أن الذراع هو مسافة ما بين طرفى المرفق إلى نهاية طـرف الأصبـع الوسطى من اليد ، وفيه أن ذراع الفقهاء هـو ست قبضـات معتـدلات مـن كـل قبضـة أربعـة أصابع، وكل أصبع بعرض ست حبات من الشعير ، وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل . ومن أسمائه ، ذراع اليد ، والغزل ، والعامة والعتيق والعادلة والمرسلة والقائمة والكرباس وذراع اليد . انظر على بن محمد الماوردى . **الأحكام السلطانية فى الولايات الدينية** (بيروت: دار الكتب العلمية ، د.ت)ص ١٩٤ - ١٩٥ ، تقـى الديـن أحمـد المقريـزى . كتـاب الخطـط (القاهرة : مكبة الثقافة الدينية ،د.ت)جـ ١ ، ص ٥٩.

ومن باب استكمال التحصينات حول ميناء جدة بدأ الأمير حسين الكردى فى حفر خندق يحيط بالمدينة من جميع جهات البر . وبعد إتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربى . ويذكر ابن فرج أن السلطان الغورى صرف على عمارة السور وملحقاته - من أبراج وجسور وجامع ومصلى للعيد وحفر الخندق - مبلغ مائة ألف دينار(٣٤) .

وبعد انتهاء الأمير الكردى من استكمال التحصينات التى عملها حول جدة اتجه بحملته نحو الجنوب ، فسيطر على عدد من الثغور الهامة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر(٣٥) ، ثم واصل الإبحار فى المياه الهندية لمواجهة الأسطول البرتغالى. وسرعان ما تلقى المساعدة من مسلمى الهند الذين إنضموا تحت قيادته . وأخيرًا اشتبك الأسطولان (المصرى والبرتغالى) فى معركة بحرية

---

(٣٤) انظر عبد القادر بنْ فرج : **السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة** ، ص ٥٧٠ ويعتبر كتاب ابن فرج المصدر الوحيد الذى ذكر لنا وصف السور الذى بناه الكردى حول مدينة جدة . وإقامة المؤلف فى جدة ربما ساعدته على أن يدون لنا هذه المعلومات عن السور ، بالإضافة إلى أنه من معاصرى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

(٣٥) ويذكر أن الأمير حسين الكردى توجه من جدة إلى سواكن فأستولى على مينائها،وأقام بعض الإستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ، ثم واصل سيره إلى الموانئ فى الجنوب مثل حازان ، وكمران ، والمخا ، وأخيرًا عدن . انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ،جـ ٤، ص ٩٦، باخرمة ، **البحر الأحمر** ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، عبد الرحمن بن على بن البديع . **قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون** . تحقيق محمد بن على الخوالى (القاهرى : د.ن، ١٩٧٧م) ص ٢١١، السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى ، ص ٦١ - ٦٢.

تمكن الأمير حسين الكردى من تحقيق انتصار رائع فيها على البرتغاليين فى موقعة شول(Chaul)(٣٦) ، سنة (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) . وكان قائد الأسطول البرتغالى ، لورنز (Lorence) ، من بين القتلى فى تلك المعركة ، الأمر الذى أثار غضب والده فرانسيسكودى الميدا الذى قرر الإنتقام لولده ، فأعد أسطولاً مكونًا من تسع عشرة سفينة . وخرج بها للإشتباك مع الأسطول المصرى فى موقعة ديو(Diu) البحرية فى عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) . وفى تلك الموقعة هزم المسلمون ودمرت معظم السفن المملوكية(٣٧) . ويذكر زين الدين المليبارى تفاصيل هامة عن هذه المعركة ، فيشير إلى أن الأسطول البرتغالى إنتهز فرصة لجوء الأسطول المملوكى ومن كان معه من مسلمى الهند إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح ، وانقض البرتغاليون على اعدائهم من الخلف فدارت معركة بحرية ضخمة انتصر فيها البرتغاليون على المسلمين ، وقتلوا كثيرًا من بحارة الأمير حسين الكردى ، وأرغموه على الإنسحاب بما تبقى من سفنه ، والعودة إلى جدة لتقوية تحصيناتها(٣٨) .

وعلى أثر الهزيمة التى لحقت بالأسطول الإسلامى فى الهند تقدم البرتغاليون إلى مياه البحر الأحمر وهددوا بلاد اليمن والحجاز ومصر ، وخاصة بعد أن صار البوكيرك نائبًا لملك البرتغال فى الهند خلفا لفرانسيسكودى الميدا . وكان أن

---

(٣٦) شول : ميناء يقع على الشاطئ الغربى للهند ويتبع مملكة الدكن الإسلامية ؛ انظر، السيد مصطفى سالم : **الفتح العثمانى** ، ص ٦٢٠

(٣٧) وللمزيد من التفصيلات ، انظر : ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٩٦ وما بعدها ، باخرمة ، **البحر الأحمر** ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٣ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٦٣ وما بعدها ، أحمد دراج . **المماليك والفرنجة** (القاهرة: د.ن، ١٩٦١م) ص ١٣٧ - ١٣٨٠

H.MORSE STEPHENS. PORTUGAL (LONDON,1891)PP.196FF.

(٣٨) انظر ، المليبارى ، **تحفة المجاهدين** ، ص ٤٠ وما بعدها .

وصلت القوات البرتغالية إلى ميناء عدن في المحرم من سنة (٩١٩هـ / ١٥١٣م)(٣٩) . وفى أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة كمران(٤٠)، فدمروها وقتلوا كثيرًا من أهلها . ثم تركوها متجهين شمالاً نحو ميناء جدة(٤١) . وكان دالبوكيرك يسعى للتقدم نحو ميناء مصوع التابع لمملكة الحبشة ، لكى يتمكن من الاستيلاء على جزر دهلك المواجهة لثغر جدة ، ومنها يتقدم نحو مهاجمة جدة ، وإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع دولة الحبشة لتدمير قوات المماليك فى البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة فى الحجاز(٤٢) .

---

(٣٩) وكانت قوات دالبوكيرك مكونة من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جندى برتغالى وحوالى ثلاثمائة من نصارى الهند . وقد وصل إلى ميناء عدن وهاجمه لكنه لم يستطع إختراقه لوعورة تضاريس عدن وعظم تحصينها وإستبسال رجالها فى رد الهجوم البرتغالى ، فرجع عنها دون فائدة . وللمزيد من التفصيل ، انظر يحيى بن الحسين بن القاسم . **غاية الأمانى** ، جـ٢ ، ص ٦٤٠ وما بعدها ، باخرمة ، **البحر الأحمر** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١١١ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٧٠ - ٧٣،
Stephens, **Portugal,** pp.190 - 200 . Wilson, the **Persian Gulf**,pp.117 - 119.

(٤٠) كمران ، جزيرة كبيرة مشهورة فى البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمنى تجاه وادى سردد . انظر باخرمة ، **البحر الأحمر** ، ص ١٢٢ ، أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجى . **طبقات الخواص أهل الصدق والآخلاص** (د.ن، ١٣٢١هـ ص ١٢١ - ١٢٢).

(٤١) انظر ، باخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه . **تاريخ ثغر عدن** (ليدن : مطبعة بزيل ، ١٩٣٦م) جـ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤٢) انظر ، سعيد عاشور ، **الحركة الصليبية** ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه. (بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى) **مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية** عدد (١٤) (١٩٦٨م) ، السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وسعى دالبوكيرك إلى تحقيق مشروعه الكبير عن طريق التطلع إلى جدة ، فسار نحوها صوب الشمال ، لكن الرياح المعاكسة أعاقت تقدمه واضطرته للرجوع إلى جزيرة كمران فبقى بها أكثر من شهرين يمارس أنواع القرصنة والتخريب فى البحر الأحمر ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند(٤٣) .

على أن هزيمة المماليك أمام الأسطول البرتغالى بالهند فى معركة ديو ، لا تعنى أن القوى افسلامية متمثلة فى دولة سلاطين المماليك فى مصر وغيرها وقفت مكتوفة الأيدى أمام ذلك الغزو الصليبى الذى استهدف السيطرة على ثروات المسلمين ومقدساتهم . وكان السلطان الغورى على علم بحجم الأسطول البرتغالى، فعزم على إنشاء قوة بحرية جديدة تستطيع أن تقف فى وجه البرتغاليين . لكن الغورى كان يعانى نقصًا فى الأخشاب والعمال والمواد اللازمة لبناء أسطول بحرى قوى ، فقرر الإتصال بأطراف مختلفة لإعانته فى إعداد حملة ثانية ضد البرتغاليين . وذكر ابن إياس(٤٤) أنه أعاد الكرة ، فأتصل بالبنادقة لمباحثتهم حول إمداده ببعض الأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الأسطول المصرى الجديد . وفى تلك المرة تجاوبوا معه لما لحقهم من أضرار اقتصادية نجمت عن سيطرة البرتغاليين على تجارة الشرق ، بعد أن كانت البندقية هى الممسكة بزمامها. لذلك أرسلوا له عدة سفن تحمل بعض الأخشاب والمعدات الحربية ؛ إلا أن فرسان القديس يوحنا اعترضوا سبيلها فى

(٤٣) انظر باخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٢٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٧١ - ٧٤ ، Serjeant The **Portuguese,** pp.169 - 170

(٤٤) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

رودس(٤٥) فأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر ، بحيث لم تصل إلى مصر سفينة واحدة من هذه السفن(٤٦) . ونلاحظ ازاء موقف البنادقة ، أنهم غيروا موقفهم ، مما يعكس الدافع الحقيقى لدورهم فى تلك المرحلة التاريخية، بمعنى أنهم عندما تظاهروا بالإستجابة للبابويه فى المرة الأولى كانوا متظاهرين بطاعة البابوية ، ولكن مصالحهم الاقتصادية تغلبت فى المرة الثانية على ذلك الموقف الدينى . وهذا يؤكد حقيقة الدافع الاقتصادى فى توجيه العلاقات بين العالم الاسلامى والعالم الأوربى فى تلك الحقبة التى تعتبر ذيلاً للحروب الصليبية .

ثم كان أن اتصل السلطان قانصوه الغورى بالسلطان العثمانى بايزيد الثانى (٨٨٦هـ / ١٤٨١م - ٩١٧هـ / ١٥١٢م) ، الذى عرف بورعه وتدينه، وطلب منه المساعدة ، وأوضح له خطورة نشاط البرتغاليين الذين يسعون للسيطرة على موانئ البحر الأحمر ، وخاصة ثغر جدة ، مما يمكنهم من الوصول إلى مقدسات المسلمين فى الحجاز للنيل منها(٤٧) . وفى شوال من عام

(٤٥) فرسان القديس يوحنا كانوا يسيطرون على جزر فى شرق البحر المتوسط متخذين من جزيرة رودس مقرا رئيسيا لهم ، ومنها يسعون إلى مهاجمة الموانئ الإسلامية، وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية فى مواجهة السفن الإسلامية ، معتقدين أن هذه الأعمال العدوانية ضد المسلمين من قبيل الجهاد الدينى . وقد بقوا فى جزيرة رودس حتى طردهم منها السلطان العثمانى ، سليمان القانونى ، إلى جزيرة مالطة فى قلب البحر المتوسط ، وبقوا بها إلى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨م .

(٤٦) انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٤٧) لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الإنعزال عن الحجاز ، فإن حجاجها كانوا يأتون كل عام فى موسم الحج . وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا إلى الحرمين كل عام، وكانوا حريصين كل الحرص على إبلاغ أمراء مكة المكرمة بانتصاراتهم فى أوربا. وعندما

(٩١٦هـ / ١٥١١م) إستجاب السلطان العثمانى لطلب السلطان الغورى ، ووصلت إلى مصر سفن عثمانية عديدة ، تحمل ثلاثمائة مدفع ، وثلاثين ألف سهم، وأربعين قنطارًا من البارود ، وألفى مقذاف من الخشب ، وبنادق ، وغير ذلك من عتاد الحرب ، هدية إلى سلطان مصر بدون مقابل ليواجه البرتغاليين . ومع هذه المساعدات جاء نحو ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة فى إعداد الأسطول الجديد فى ميناء السويس والمشاركة فى الحملة البحرية المنتظرة إلى الهند(٤٨) .

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن المماليك كانوا على صلة دائمة بأمراء الممالك افسلامية فى الهند ، وكانوا يثيرون حماسهم الدينى من أجل التعاون معهم

فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م أرسل إلى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء ، كما أرسل إليه بعض الهدايا من غنائم الفتح . وكان العثمانيون يطمحون فى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى أن ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذى إعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم . وللمزيد من التفصيلات انظر ساطع الحصرى . **البلاد العربية والدولة العثمانية** (القاهرة : معهد الدراسات العربية ١٩٥٧م) ص ٢٦ وما بعدها .

(٤٨) انظر ،ابن إياس : **بدائع الزهور** ، حـ ٤ ، ص ١٩٦، ٢٠١ ويشير ابن إياس فى حديثه عن حملة السويس إلى إهتمام السلطان الغورى بسلمان الريس وجماعته عندما ذهب إلى السويس بنفسه للإحتفال بإنزال سفن الأسطول البحرى ، فقال : "....وكان هناك الريس سلمان العثمانى وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان إظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان ، حتى قيل دخل العسكر إلى السويس وهو لابس آلة الحرب . وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو ألفين...." انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، حـ٤ ، ص ١٩٦ ، ٣٦٥، باغرمة ، **البحر الأحمر** ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣١ - ١٣٢٠ .

ومساعدتهم فى تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات الإسلامية التى كان البرتغاليون يلوحون باستمرار بالوصول إليها وتدميرها . واسفرت هذه المشاعر والمساعى عن قيام سلاطين الممالك الإسلامية فى الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والأقمشة وغيرها . وشحنت هذه المساعدات بعد عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) على متن ثلاثة مراكب من الهند إلى جدة مساهمة منهم فى تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالى(٤٩) .

وفى أثناء إنشغال المماليك فى بناء قوة بحرية فى السويس ، وصلت أنباء إلى الحجاز وإلى مصر تفيد بأن البرتغاليين غادروا بلاد الهند بقيادة دالبوكيرك فى عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) على رأس حملة مكونة من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة برتغالى وسبعمائة من نصارى الهند متوجهين إلى البحر الأحمر بهدف الوصول إلى جدة ومكة المكرمة وتخريبهما . ولم يكن أمام السلطان الغورى إلا أن أرسل على الفور قوة إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردى ، الذى عاد بعد معركة ديو للإشراف على بناء الأسطول المصرى الجديد فى السويس(٥٠) ، وعندما وصل الأمير الكردى إلى ميناء جدة لتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة ثانية ، بالغ فى تحصينها إلى الحد الذى أثار سخط بعض معاصرية من التجار ، ولم يسلم من إنتقاد بعض المؤرخين المعاصرين(٥١) . ويذكر أنه اعتمد فى نفقات التحصين

---

(٤٩) انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٣ .

(٥٠) انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

(٥١) انظر ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها ، النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ١٩، وللمؤلف نفسه ، كتاب الأعلام ، ص ١٦٥ - ١٦٧ ، ٢٤٥ ، بامخرمة : **البحر الأحمر** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣٠ ؛ السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وبناء السور والقلاع على مصادرة أموال التجار ، كما أجبر كثيرًا من أهالى جدة على العمل فى البناء والدفاع(٥٢) . ودفع الأمير الكردى إلى اتخاذ هذه السياسة القاسية خطورة الموقف ، وما قد ينتج من أخطار على المسلمين لو وقعت جدة فى أيدى الغزاة من البرتغاليين . هذا فضلاً عن تدهور الأحوال الاقتصادية فى دولة سلاطين المماليك وفى البحر الأحمر ، بسبب هجمات البرتغاليين ، مما كان ذا اثر كبير على تصرفات الأمير الكردى تجاه أهل جدة أو من كان يفد إليها من التجار .

أما الحملة البرتغالية فقد غادرت الهند بقيادة دالبوكيرك فى طريقها إلى البحر الأحمر لتحقيق أهدافها العدوانية . وبينما هو فى طريقه وصله خبر أن ملك هرمز أصبح صنيعة فى يد شاه فارس ، وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز . لذلك غيّر القائد البرتغالى خط سيره وقام بزيارة عسكرية إلى هرمز واحكم سيطرته عليها. وفى تلك المرحلة أصابه المرض واشتد به فعاد إلى الهند حيث توفى هناك عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) ، وبذلك سلمت جدة والأماكن المقدسة من نوايا دالبوكيرك(٥٣) .

أما عن الأمير حسين الكردى فقد تتابعت الإمدادات العسكرية إلى قواته ، وأرسل له السلطان الغورى قوة عسكرية أخرى لكى تسانده فى أحكام التحصينات حول ثغر جدة . وأخيرًا تم الإنتهاء من إعداد الحملة البحرية الجديدة فى السويس وهى التى اشتهرت حينئذ باسم "حملة الهند" ؛ وصارت على أهبة الخروج للجهاد فى بداية عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) . وكانت تتألف من عشرين

---

(٥٢) المصادر نفسها .

(٥٣) وللمزيد من التفصيلات انظر :

A. Wilson, **The Persian Gulf**, pp.121ff.

سفينة حربية(٥٤) ، أما عدد أفرادها فكانوا حوالى ستة الآف ، أغلبهم من اليحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان ، والباقى من البيوت والفرق المملوكية المختلفة . ويستطرد ابن إياس فى حديثه عن جهود السلطان الغورى ، فيذكر أنه توجه بنفسه إلى ميناء السويس لإستعراض جنود الحملة فى إحتفال كبير فى ١٠ رجب سنة ٩٢١هـ (٢٠ أغسطس سنة ١٥١٥ م)(٥٥) وعين سلمان الريس قائدًا للأسطول ، على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردى عند وصولها إلى مقره فى جدة . ويذكر أن السلطان الغورى انفق حوالى أربعمائة ألف دينار على بناء الأسطول ، كما أنعم على سلمان الريس ببعض الهدايا والعطيات . ولم ينس النجارين والبنائين والحدادين الذين عملوا فى بناء الأسطول وإعداده فأنعم عليهم أيضًا ببعض المنح المختلفة(٥٦) .

وعندما استكملت القوات المصرية إستعدادها غادرت السويس إلى ميناء جدة حيث بقيت فيه طوال شهر رمضان . ثم ابحرت نحو الجنوب بقيادة الأمير حسين الكردى ويساعده الأمير سلمان الريس(٥٧) . وبدأ قادة الحملة يخططون لإقامة بعض التحصينات فى موانئ البحر الأحمر ، وخاصة فى الثغور اليمنية التى كانت فى حاجة إلى جبهات دفاع على غرار التحصينات التى أقامها الأمير حسين الكردى فى جدة ، وذلك بهدف إغلاق البحر الأحمر من الجنوب أمام البرتغاليين.

---

(٥٤) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٩٥ ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، **غاية الأمانى** ، جـ٢ ، ص ٦٤١ - ٦٤٣ .

(٥٥) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٥٦) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٥٧) انظر السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٧٩ وما بعدها .

ولكن لم يتم لهذه الحملة النجاح لأنها اشتبكت مع أمراء اليمن الذين امتنعوا عن مساعدتها ، بل رفضوا إقامة تحصينات فى بلادهم(٥٨) . وبسبب ذلك تأجل ابحار الحملة إلى الهند ، وظل أسطول المماليك راسيا عند شواطئ جزيرة كمران ثمانية اشهر منصرفًا لبناء التحصينات فيها . واضطر الكردى بتأييد من إمام الزيديين فى صعده وفقيه لحج وشريف جازان إلى الهجوم على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى لقى مصرعه وسقطت عاصمته زبيد . وبذلك إنتقلت تهامة ومخا وتعز إلى أيدى المماليك . ثم كان أن أحكم الكردى الحصار على عدن برًا وبحرًا إلا أنها استعصت عليه مما أضطر المماليك إلى رفع الحصار عنها والعودة ثانية إلى القواعد التى إنطلقوا منها(٥٩) .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة واجهت حملة المماليك وغيرت من سياستها وأهدافها ، وجعلتها تتوقف عند أطراف اليمن الجنوبية دون أن تواصل تقدمها نحو الهند ، وبالتالى فقد تغيرث سياستها العسكرية من سياسة هجومية إلى سياسة دفاعية . وقد عبرت بعض المصادر التاريخية عن هذه الحملة وذكرت الأسباب والعوامل التى أدت إلى تلك النتيجة ، ونلخص أهمها فيما يلى :

أولاً : تؤكد بعض المصادر التاريخية أن السبب الرئيسى فى عدم تحقيق الأمير حسين الكردى هدفه بالوصول إلى الهند هو خلاف وقع بينه وبين سلمان الريس، الأمر الذى أدى إلى حدوث إنقسام بين أفراد الأسطول المملوكى ، فتوجه

---

(٥٨) انظر ، النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ٢٠ ن السيد مصطفى سالم . **الفتح العثمانى** ، ص ٨٠ وما بعدها .

(٥٩) انظر نيقولاى . **الفتح العثمانى للأقطار العربية** ، ص ١٢٠ وما بعدها .

سلمان الريس إلى ميناء زيلع ومنها إلى جدة ، بينما عاد الأمير الكردى إلى جدة بعد مروره بالموانئ اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر . وجاء تمرد سلمان الريس وإنفراده بقيادة الأسطول المرابط فى جدة تنفيذًا لأوامر السلطان سليم العثمانى بالقبض على الأمير حيسن الكردى وإغراقه فى البحر الأحمر . وقد حدث ذلك بعد إستيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسة(٦٠).

ثانيًا : عدم تعاون أمراء اليمن ، كما أشرنا ، وخاصة السلطان اليمنى عامر بن عبد الوهاب الطاهرى ، الذى سبق أن طلب النجدة من سلطان المماليك فى بداية الأمر ، وخاصة بعد وصول البرتغاليين إلى جنوب البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة على ميناء عدن . ولهذا لم يكن أمام القوات المصرية إلا مهاجمة أمراء اليمن ، وبالأخص أمراء الدولة الطاهرية ، من أجل إخضاعهم ثم مواصلة السير لمواجهة البرتغاليين . ولكن حدث عندما بدأ الصراع بين الطرفين أن تطور الأمر إلى معارك وحروب أخرجت الحملة عن هدفها الأساسى .

وفى ظل الظروف التى مات فيها دالبوكيرك البرتغالى ، وفشل قوات المماليك فى مواصلة سيرها نحو بلاد الهند ، كان البرتغاليون يعدون حملة أخرى تحت قيادة لوبوسوريز(Lopo Soares) خليفة دالبوكيرك ، بهدف اقتحام البحر الأحمر ومهاجمة ميناء جدة . وقد غادرت تلك الحملة الهند فى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) . وكانت تتكون من أربعين سفينة ونحو ألفين من الرجال المسلحين . وعند وصولها إلى عدن لم يهاجمها لوبوسوريز بل تقدم إليها فى سلام ، وطلب من

(٦٠) النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ٢٦ - ٢٧٠ .

واليها مرجان الظافرى أن يمده بالمؤن اللازمة ، وببعض المرشدين البحريين لإرشاد الحملة إلى ثغر جدة . فأجاب الأمير مرجان هذه المطالب . على أن هذه الحملة البرتغالية فشلت أمام ميناء جدة ، وذلك بفضل التحصينات التى كان قد أجراها الأمير حسين الكردى من قبل ، فاضطر لوبوسوريز إلى أن يتقهقر بحملته . وقام الأمير سلمان الريس ، الذى تحمل مسؤلية صد هذا الهجوم ، بمطاردة السفن البرتغالية حتى غادرت مياه جدة والموانئ القريبة منها(٦١) .

وتثير هذه الحملة التى قادها لوبوسوريز إلى البحر الأحمر عدة نقاط تحتاج إلى توضيح ، إذ نتساءل لماذا قدم أمير عدن المساعدة للنصارى ضد المسلمين ، وخاصة أنهم يسعون إلى مهاجمة ثغر جدة والأماكن المقدسة فى الحجاز ؟ ولماذا تقاعست دولة المماليك عن مساعدة القوات الإسلامية فى جدة خلافًا لما كانت تفعل سابقًا ؟ وأخيرًا كيف استطاع سلمان الريس وأهل جدة التصدى لتلك الحملة البرتغالية الكبيرة ؟ .

وفى اعتقادنا أن لوبوسوريز مر بميناء عدن دون السيطرة عليه لأنه كان يعتبره هدفًا ثانويًا بالنسبة لميناء جدة ، وفى رأيه أنه إذا سيطر على ثغر جدة فلن يصعب عليه الرجوع إلى عدن وإحتلالها بعد أن يكون قد امسك فى قبضته بواسطة العقدة "جدة" . هذا إلى أنه وجد التعاون من أمير عدن ، مرجان الظافرى، وهذه فرصة ، حيث أن هذا الأمير المسلم لم يقتصر فى مساعدته على تقديم المؤن والمعدات وإنما أرسل معه مرشدين بحريين يدلونه على الطريق إلى

---

(٦١) بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ - ٢٠٠ ، السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،
Serjeant. the **Portuguese,** pp.170 - 172.

جدة. وربما كان القائد البرتغالى قد أدرك صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر ، وأنها من أسباب فشل بعض حملات البرتغاليين السابقة .

على أن هذا التصرف من قائد الحملة (لوبوسوريز) جعل بعض الكتاب الغربيين يهاجمونه بسبب إضاعته هذه الفرصة الثمينة فى السيطرة على ميناء عدن ، بل أن ملك البرتغال غضب هو الآخر من لوبوسوريز فعزله من منصبه كنائب للملك فى الهند(٦٢) .

أما تقديم أمير عدن المساعدة للبرتغاليين ضد المماليك المسلمين فيرجع ذلك إلى عدة أسباب ، ومنها :

١ - ذكرت المصادر ما قام به الأمير حسين الكردى وسلمان الريس من حروب ضد أمراء اليمن ، مما أدى إلى قتل سلطانهم عامر عبد الوهاب الطاهرى . وربما كان قيام مرجان بمساعدة البرتغاليين بالمؤن والعتاد والمراقبين البحريين بهدف الإنتقام من المماليك ، وخاصة أن قائد الحملة البرتغالية ذكر للعدنيين عندما وصل بلادهم بأنه لن يؤذيهم ولا يرغب فى السيطرة على عدن وإنما يريد الذهاب إلى جدة للسيطرة عليها(٦٣) .

٢ - إن مساعدة مرجان الظافرى للبرتغاليين ضد المسلمين يعتبر فى حد ذاته خيانة ، وهذه ظاهرة فردية لها ما يشبهها فى تصرفات بعض أمراء وأعيان

---

(٦٢) انظر :

Wilson, **The Persian Gulf**, pp. 123 - 124, M. Longworth Dames, "The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century" **Journal of the Royal Asiatic Society.** Part:1 (January, London,1921)pp.12 - 13.

(٦٣) بامخرمة ، **البحر الأحمر** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم .**غاية الأمانى** ، حـ ٢ ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ ز السيد مصطفى سالم، **الفتح العثمانى** ، ص ٨٥ وما بعدها .

المسلمين فى كل من العراق وفارس ، وشرق أفريقية والأندلس ، وبلاد الشام وغيرها فى العصور الوسطى ، حيث يتردد ذكر تعاون بعض المسلمين مع المسيحيين ضد أخوانهم فى الإسلام(٦٤) .

وكان الدافع غالبًا وراء تلك الظاهرة المصلحة أو الإنتقام كما حدث من مرجان الظافرى . وربما تناسى أمير عدن أن حملة لوبوسوريز متجهة نحو جدة والأماكن المقدسة فى الحجاز . ولا ندرى هل أدرك ما سيترتب على دخول البرتغاليين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لو نجحوا فى السيطرة على ميناء جدة ؟ وإن قلنا أن مرجان تجاوب مع البرتغاليين من باب الخوف على نفسه وعلى عدن من خطرهم فإن هذا لا يبرر موقفه ، وخاصة أن مساعدته لم تقتصر على المؤن والعتاد وإنما أرسل مرشدين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر .

٣ - وإذا ما استبعدنا عنصر الخيانة عند الأمير مرجان الظافرى ، فربما كان سبب تعاونه مع البرتغاليين أنهم وصلوا إلى بلاده فجأه ، وكان يحتاج إلى بعض الوقت ليعزز فيه التحصينات حول عدن ، وعند ئذ رأى افضل السبل فى أن يسلك جانب اللين مع لوبوسوريز، فيقدم له المساعدات لكى يبعده فى طريقه نحو

---

(٦٤) ولعل حوادث خيانة بعض المسلمين لصالح المسيحيين كثيرة على مدار التاريخ الإسلامى ، وبالتالى لا يمكن حصرها فى هذا المقام ، ولكن نشير إلى اقرب مثال من هذا النوع لهذا البحث . وأقصد بذلك أن الرسول الذى أرسله ملك الحبشة (إسحق) إلى ملوك غرب أوربا عام ١٤٢٨م ، من أجل دعوتهم للمشاركة فى حرب صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر ، كان تاجرًا فارسيًا مسلمًا اسمه على نور الدين التبريزى . انظر جمال الدين يوسف أبو المحاسن . **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة** ، طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم ببر ، عام ١٩٣١م ، حـ ٦ ، ص ٦٣٧ - ٦٤٠ .

ميناء جدة فى الشمال مدركًا بأن قوات المماليك سوف تتصدى له ، وعند عودته عن طريق عدن يكون هو الآخر قد إستعد لمواجهتهم . والسبب الذى يجعلنا نأخذ بهذا الرأى إننا نجد الأمير مرجان الظافرى يغير رأيه تجاه البرتغاليين بعد أن فشل لوبوسوريز فى الدخول إلى جدة ، فيتصدى له ولحملته ويحاربهم وتستمر سياسته لهم فى الحملات التى قادوها بعد لوبوسوريز(٦٥) .

أما عن موقف المماليك السلبى تجاه الدفاع عن ميناء جدة والتصدى للبرتغاليين فكان ناتجًا كما سبق أن ذكرنا عن الضعف الذى كانت تعانيه الدولة المملوكية فى آخر أيامها . وقد أحس العثمانيون بذلك الضعف فلم يتركوا المجال للبرتغاليين ليجهزوا على المماليك، وإنما أخذوا قصب السبق فقضوا على السلطان قانصوه الغورى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وبالتالى أسدلوا الستار على دولة سلاطين المماليك وتولوا عبء الدفاع عن بلاد المسلمين والوقوف فى وجه البرتغاليين(٦٦) . وفى الوقت الذى كانت دولة المماليك تحتضر فى كل من بلاد مصر والشام لتحل الدولة العثمانية محلها ،كان لوبوسوريز يسعى للسيطرة على ميناء جدة والدخول إلى الأماكن المقدسة لتدميرها . ولا تشير المصادر التاريخية إلى أية مساعدة أو استعدادات أرسلت من دولة المماليك إلى ثغر جدة لمواجهة الغزو البرتغالى الأخير ، حيث كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد السلطان

---

(٦٥) يحيى بن الحسين . **غاية الأمانى** ، جـ٢ ، ص ٦٥٩ وما بعدها باخرمة ، **البحر الأحمر** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٦٦) وللمزيد من التفصيلاتت انظر ، النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ٤٢ وما بعدها، باخرمة ، **البحر الأحمر**، دراسة محمد عبد العال ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، على حسون. **تاريخ الدولة العثمانية** (بيروت: المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٤٥ - ٥٢٠.

سليم العثمانى(٦٧) . ثم أن العثمانيين أنفسهم قابلوا بعض المشاكل أثناء دخولهم بلاد الشام ومصر للقضاء على دولة سلاطين المماليك ، فلم يتمكنوا هم الآخرون من إرسال قوة تدافع عن جدة والمقدسات الإسلامية ، وخاصة أن دخولهم مصر والسيطرة عليها تزامن مع الحملة البرتغالية التى دخلت البحر الأحمر بقيادة لوبوسوريز فى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م)(٦٨) .

أما كيف تقهقرت الحملة البرتغالية من أمام ميناء جدة ، وخاصة أنها أول حملة استطاعت الوصول إلى جدة ، فلا نجد فى المصادر التاريخية تفصيلات عن الصدام الذى حدث بين البرتغاليين والمسلمين المرابطين فى جدة . وكل ما أشارت إليه هو تصدى سلمان الريس بمن كان معه فى الميناء لتلك الحملة الكبيرة حتى استطاعوا هزيمة البرتغاليين ومطاردتهم فى مياه البحر الأحمر(٦٩) . ويبدو أن هناك ظروف عدة ساعدت على إنهزام البرتغاليين ورجوعهم عن جدة ، وخاصة أن القوى الإسلامية فى كل من مصر والشام كانت تمر بمرحلة عصيبة فلم تتمكن من التصدى للبرتغاليين كما فعل المماليك فى الأعوام السابقة لحملة لوبوسوريز . وهذه الظروف يمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - مناعة السور والتحصينات التى كان قد أقامها الأمير حسين الكردى حول جدة . وقد اعترف البرتغاليون أنفسهم بتلك التحصينات عندما حاولوا إختراقها فى تلك الحملة الأخيرة(٧٠) .

---

(٦٧) المصادر نفسها .

(٦٨) باخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ وما بعدها ، النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٦٩) باخرمة المصدر السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٧٠) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،

Serjeant, The Portuguese, pp.170ff.

٢ - ربما ساعدت الشعب المرجانية التى يزخر بها البحر الأحمر فى إعاقة الحركة عند البرتغاليين ، خاصة وأنهم كانوا يجهلون ممرات ذلك البحر. ولعل حرصهم على أخذ مرشدين بحارة من العدنيين ليعينوهم فى رسم الطريق لهم فى هذا البحر أكبر دليل على عدم درايتهم بدروبه ونظام الملاحة فيه .

٣ - لا نستبعد أن يكون أولئك الملاحين الذين أرسلهم أمير عدن قد أحسوا بعظم الجريمة التى يقومون بها فى مساعدة الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين، وأدركوا ما يحل بالمسلمين من مصائب لو تمكن النصارى من السيطرة على الحرمين الشريفين ؛ لهذا فإنهم لم يخلصوا فى أرشادهم للبرتغاليين ، وربما زودوهم بمعلومات غير صحيحة أدت إلى فشلهم ضد القوات الإسلامية المدافعة عن جدة .

٤ - عظم الأمر على المسلمين بوصول البرتغاليين إلى جدة التى هى بوابة مكة المكرمة ، ولا نستبعد أن يكون جميع من فى جدة ، بل من فى الحجاز ، قد عملوا ما فى جهدهم للدفاع عن جدة ضد هذا العدو الصليبى الجديد . والسبب الذى يجعلنا نجزم بهذا القول ، هو أن جدة صارت رباطًا للمجاهدين ، بل ظهرت فتاوى من علماء المسلمين فى الحرمين وغيرهما بأن ميناء جدة أهم رباط فى الإسلام ، فينبغى لمن دخله أو أقام فيه أن ينوى المرابطة والجهاد والدفاع عن بيت الله الحرام ، ويحمل ما يستطيع حمله من السلاح لدفع أهل الشرك والعناد . وهناك من العلماء من افتى بأن ثغر جدة أفضل الثغور لقربه إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة الذى يكون من دخله آمنا ، وأن فضل من رابط فيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان فى سائر الأزمان والدهور . وذكروا عن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - قوله : "يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة"(٧١) .

هذه هى نظرة الإسلام والمسلمين إلى جدة درع الحرمين . وعندما يصل الأمر إلى ما وصل إليه فى حملة لوبوسوريز البرتغالى من خطر على جدة والحرمين، لابد وأن يكون صدى ذلك عند المسلمين ، وخاصة المواجهين للخطر المباشر مثل سكان الحرمين ، قويًا وعنيفًا ، يبذلون فيه الغالى والرخيص من أجل الدفاع عن الكعبة المشرفة ، وقبر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهذا بالفعل ما حدث من أهل الحجاز عندما دهمهم الخطر البرتغالى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) .

وبعد أن قضت الدولة العثمانية على دولة سلاطين المماليك فى مصر عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) انتقلت أمانة حماية الحرمين إلى العثمانيين الذين ورثوا مهمة الدفاع عن البحر الأحمر ضد هجمات البرتغاليين . وقد بقيت جدة فى حسبان سلاطين بنى عثمان لأهميتها بالنسبة لمسيرة التجارة فى البحر الأحمر ، ولقربها من الحرم الشريف فى مكة المكرمة . ولهذا حافظوا على صلاتهم الوطيدة بأمراء مكة من الأشراف ، وسعوا إلى أحكام التحصينات على جدة والتصدى للقوات البرتغالية التى لم تكتف بحملة لوبوسوريز .

ذلك أن البرتغاليين لم يكفوا عن مهاجمة البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة، وإنما أعدوا حملة بحرية كبيرة بقيادة نائب الملك البرتغالى لوبرسكويرا الذى خلف لوبوسوريز ، فخرجت هذه الحملة من الهند حتى وصلت إلى مدخل البحر الأحمر

(٧١) انظر ، الفاسى ، **شفاء الغرام** ، جـ١ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، عبد القادر بن فرج **السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة** ، ص ٤٠ - ٤٢ ، حسن أحمد محمود. **إنتشار الإسلام فى أفريقية** . (القاهرة : د. ن، ١٩٦٣م) ص ١٩ - ٢١.

فى أوائل سنة (٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) . وكان هدف لوبرسكويرا ، مثل من سبقه ، هو التركيز على مهاجمة جدة بصفة خاصة ، فلم يتوقف فى عدن وإنما سارع بالتقدم إلى ميناء جدة قبل أن يفوته موسم الرياح . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى جدة لمعاكسة الرياح لسفن حملته ، ولأنه علم أن بها حشودًا عسكرية كبيرة تعمل على التصدى له(٧٢) . وعند ئذ إنحرف لوبوسكويرا إلى ميناء مصوع بهدف الاتصال بالأحباش لعقد تحالف مشترك ضد القوى الإسلامية(٧٣) ، ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند .

وفى السنوات الأخيرة من العقد الثالث فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حاول البرتغاليون مرة أخرى مد نفوذهم على البحر الأحمر ، وخاصة على الموانئ الرئيسية فيه ، مثل مينائى جدة وعدن ، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهما لتصدى القوى المحلية لهم فى كل من اليمن والحجاز ، فضلاً عن أن الدولة العثمانية التى كانت قد ورثت مسؤليات سلاطين المماليك فى الدفاع عن البحر الأحمر وحماية المقدسات الإسلامية ، دأبت على تعزيز سواحل البحر الأحمر المطلة على الحجاز ببعض القوات العسكرية(٧٤) . ولم ينبر العثمانيون

---

(٧٢) انظر النهروانى ، **البرق اليمانى** ، ص ٧٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، Serjeant, The **Portuguese,** pp.171 - 172.

(٧٣) وللمزيد من التفصيلات عن العلاقات مع الأحباش : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ١٠٨ وما بعدها.

Alvarez (a **Portuguese** pp.311 - 311, 393ff.

(٧٤) انظر بامخرمة ، **البحر الأحمر** ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢١٠ وما بعدها ، النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ٧٨ وما بعدها .

بشكل جاد فى العمل على طرد البرتغاليين من البحر الأحمر وإغلاقه أمام قواتهم إلا فى منتصف القرن العاشر الهجرى . والسبب فى تأخرهم أكثر من عشرين سنة بعد دخولهم مصر وقضائهم على دولة المماليك عام(٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، هو انشغالهم بالعديد من الفتن والثورات فى بلاد فارس والعراق وغيرهما من بلدان الشرق الأدنى(٧٥) .

وفى تتبعنا لتلك الحملات البرتغالية على ميناء جدة فى أواخر عصر دولة سلاطين المماليك حتى قضى العثمانيون على هذه الدولة عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) لابد من إلقاء نظرة على الجبهة الداخلية فى الحجاز -جدةومكة المكرمة- وموقف هذه الجبهة من العدوان الصليبى ، وما ترتب على كل ذلك من آثار سلبية.

ولشرح ذلك نقول إنه من المعلوم أن أهل الحجاز كانوا فى خوف مما دهم بلادهم ، وخاصة إن هذا الخطر المتمثل فى البرتغاليين لم يكن كأى خطر آخر ، لأنهم أدركوا أن البرتغاليين يسعون للسيطرة على جدة لكى يتمكنوا من الدخول إلى مكة لتدميرها . ولذا فإن الصراع كان عقائديًا بين النصارى والمسلمين قبل أن يكون صراعًا أقليميًا على أرض أو ما شابهها . ومن واقع هذا الإحساس أخذ علماء الحجاز يصدرون الفتاوى لكل الناس يحثونهم على الجهاد ويبينون عظم الأجر والمثوبة لمن يحمل سلاحه وعتاده ويذهب فى سبيل الله إلى جدة للمرابطة فيها ضد البرتغاليين(٧٦) . وكان أن تجاوب أناس كثيرون مع هذه الدعوة ، على

---

(٧٥) وللمزيد من التفصيلات انظر:على حسون، **تاريخ الدولة العثمانية**ص ٤٢-٦٦ .

(٧٦) انظر عبد القادر بن فرج .**السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة** ، ص ٤٠ وما بعدها .

رأسهم أمير مكة فى عهد السلطان قانصوه الغورى الشريف بركات(٧٧) الذى ذهب فى جمع كبير من مكة إلى جدة أثناء عمل الأمير حسين الكردى فى بناء سور جدة ، فعملوا جميعًا فى تشييد السور وملحقاته . كذلك ساعد الأمير الشريف بركات فى نزع ملكية بعض البيوت التى كانت قريبة من السور ، وبقى إلى جانب الأمير حسين الكردى يشرف على عملية البناء . وأشارت إحدى الروايات إلى أنه كان يقف على العمارة راكبًا فرسه ، ليحضر بحضوره جميع من بالبلد ويعينون فى حمل المؤن ، الكبير والصغير والغنى والفقير ، المأمور والأمير(٧٨) . وظل أهل الحجاز ، وخاصة أمراء مكة ، متيقظين لتحركات البرتغاليين فى المياه الهندية ومحاولة دخولهم إلى البحر الأحمر ، فتجدهم على اتصال دائم بحاميات المسلمين ، التى تركها حسين الكردى فى جدة ، بعد رجوعه إلى السويس للإشراف على الأسطول المصرى الجديد الذى كان يعده الغورى بعد هزيمة جيشه فى معركة ديو ؛ فيساعدونهم ويمدونهم ببعض السلاح والعتاد ، إلى جانب رفع روحهم المعنوية بوصفهم يدافعون عن مقدسات المسلمين . كذلك ظل أمراء الحجاز على صلة مستمرة بالسلطان قانصوه الغورى يطلعونه على ما يدر

---

(٧٧) هو بركات بن محمد بن حسن بن عجلان ، تولى إمارة مكة المكرمة بعد وفاة أبيه ، وكانت له وقائع مع إخوانه هزاع وحميضة والجازانى ، وتوفى بمصر عام ٩٣١هـ / ١٥٢٥م. انظر : عبد القادر بن شيخ العيدروس : **النور السافر عن أخبار القرن العاشر** (بغداد : د. ن، ١٣٥٣هـ ص ١٥٢) ، أحمد دحلان . **خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام** (القاهرة : د.ن، ١٣٠٥هـ) ص ٤٦ - ٥٢ .

(٧٨) انظر عبد القادر بن فرج **السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة** ، ص ٥٨ .

من البرتغاليين فى الشرق ، ويطلبون منه سرعة النجدة ضد الغزو الصليبى مرة بعد أخرى . أما الشريف بركات من أمراء الحجاز فكان حريصًا على تعزيز التحصينات فى جدة واطلاع السلطان الغورى بكل جديد . من ذلك أنه حدث فى عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) أن ساد أهل الحجاز خوف شديد عندما سمعوا بخروج حملة برتغالية من الهند فى طريقها إلى جدة ، الأمر الذى دفع الشريف بركات للتوجه مع بعض رجاله من مكة إلى جدة لكى يتصدى لهذه الحملة المنتظرة، كما أسرع فى مخاطبة السلطان الغورى وبّين له خطورة الموقف وطلب منه المدد والنجدة ، فأرسل إليه السلطان قوة عسكرية بقيادة حسين الكردى لتدافع عن ثغر جدة حتى يتم تجهيز الأسطول الجديد الذى كان السلطان الغورى يعده فى السويس(٧٩) .

وقد سبق أن أشرنا إلى حملة البرتغال بقيادة لوبوسوريز ضد جدة ومكة فى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧) ، وكيف أنها منيت بالهزيمة من الحامية المحلية التى كانت مقيمة فى رباط جدة . ونضيف هنا أن النصر الذى أحرزه المسلمون ضد تلك الحملة الصليبية لم يحدث من فراغ ، مع ملاحظة أنه لم يأتهم أى مدد أو نجدة من المماليك أو غيرهم ، وإنما تم النصر بفضل تماسك وتعاون الجبهة الداخلية فى الحجاز مما مكّن المسلمين المرابطين فى جدة من رد هجمات البرتغاليين .

وكانت جدة فى أواخر العصر المملوكى تتبع إداريًا بشكل مباشر سلطان المماليك فى القاهرة ، فهو الذى يعين مشرفًا يتولى إدارة جدة ، ويطلق على هذا

---

(٧٩) ابن إياس **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

الموظف لقب "نـائب جـدة" أو "نـاظر جـدة"(٨٠) . وكـانت مهمتـه إدارة الأمـور السياسية والتجارية والنظر فى أمور التجار فى الميناء ، ثم جمع الضرائب المفروضـة على التجارة القادمة إلى جدة ، وخاصة مـن بـلاد الهنـد . وهـذا النظـام السياسـى الجديد لم تعرفه جدة إلا فى آواخـر العصـر المملوكـى ، فـى حيـن كـانت إدارتهـا وجباية الضرائب فيها من قبل من مسؤليات أمراء مكة من الأشراف(٨١) .

وهناك أسباب جعلـت سـلاطين الممـاليك الأواخـر يتولـون الإدارة المباشـرة لميناء جدة وتتمثل هذه العوامل فيما يلى :

١ - تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية فـى دولـة سـلاطين المـماليك ، وإحتياجهم إلى الأموال التى تغطى نفقاتهم ، مع إدراكهم أهمية ميناء جـدة الـذى ترتاده السفن التجارية من شتى بلاد المشرق ، فضلاً عن كثرة الضرائب التى تجمـع

---

(٨٠) أن أهمية جـدة الاقتصاديـة ومـا يفـد إليهـا مـن تجـارات العـالم ومـا يؤخـذ مـن ضرائب، جعلتت سلاطين المماليك الأواخر يستاثرون بتلك الضرائب عن طريق السيطرة إداريًا ، وبشكل مباشر ، على ثغر جدة ، بعد أن كـانت مـن قبـل تابعـة لأمـير مكـة المكرمـة. وهـذا التصرف من المماليك يؤكد لنا تدهور أحوالهم الاقتصادية ، حتـى اصبحنـا نراهـم يلجأون إلى جمع المال بأى طريقة كانت . وللمزيد من التفصيلات عن أحوال جدة الإدارية والاقتصادية فى آواخر عهد المماليك انظر : تقى الدين أحمد المقريـزى . **السـلوك لمعرفـة دول الملـوك** ، تحقيـق سعيد عبد الفتاح عاشور (القـاهرة : لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر ، ١٩٧٣م) جـ ٤ ، ص ٧٠٧ ومـا بعدهـا ؛ ريتشـارد مورتيـل : **الأحـوال السياسـية والاقتصاديـة بمكـة فـى العصـر المملوكى** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات ، جامعـة الملـك سـعود ، ١٩٨٥م) ص ١٧٣ ومـا بعدها .

(٨١) المصادر نفسها .

من التجار الذين يرتادون هذا الميناء . ولهذا رأى السلاطين أهمية إستئثارهم بهذه الضرائب بدلاً من أن ينفرد بها أمراء مكة ، مبررين عملهم ذلك بدفاعهم عن ميناء جدة وعن المقدسات الإسلامية فى الحجاز(٨٢) .

٢ - لم يحسن أمراء مكة المكرمة جمع الضرائب من تجار جدة ، وإنما بالغ بعضهم فى جمعها حتى إرتفعت الشكاوى من بعض التجار الذين كانوا يرتادون الميناء ، وبالتالى صار بعضهم يغير اتجاه تجارته إلى بعض الموانى الأخرى على سواحل البحر الأحمر كزيلع ، أو عدن ، أو ينبع وغيرها(٨٣) . وهذا الوضع فى جدة ساعد سلاطين المماليك فى التحكم فى تجارها وتجارتها ، ظنًا منهم أن الأحوال الأمنية والإدارية ، وخاصة فيما يمس الناحية التجارية ، ستكون فى حالة أفضل من ذى قبل . ولكن سرعان ما سارت الأمور إلى الجانب المعاكس .

أما عن الجوانب السلبية التى عانت منها جدة فى تلك الحقبه فيمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - تدهور الأحوال الاقتصادية ، وخاصة التجارية منها ، فى ميناء جدة وفى الطريق المؤدى إلى موانى مصر الرئيسية . وكان ذلك مظهرًا من مظاهر الخلل الذى أصاب الأوضاع فى الدولة المملوكية بوجه عام . ويظهر الحال واضحًا فى حديث ابن إياس عن حوادث سنة (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) عندما قال : "....وكان فى تلك الأيام ديوان الفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الإنشحاب والتعطيل ، فإن بندر الإسكندرية خراب لم تدخل إليها القطائع (السفن الكبيرة)

---

(٨٢) المصادر نفسها .

(٨٣) ريتشارد مورتيل ، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى** ، ص ١٨٣ وما بعدها .

في السنة الخالية ، وبندر جدة خراب نحوا من ست سنين...."(٨٤) . وحديث ابن إياس يصور لنا سوء الحال الذى لحق بميناء جدة فى السنوات التى كان دالبوكيرك البرتغالى متزعمًا مطاردة المسلمين ومهاجمتهم فى عقر دارهم .

٢ - قسوة بعض الأمراء الذين كانوا يعينون من قبل السلطان الغورى على ميناء جدة ، حتى قيل إن بعضهم كان لا يتهاون فى أخذ الناس بالقوة ، وخاصة التجار منهم ، فكانوا يجمعون منهم الضرائب الباهظة . ومن لا يتجاوب مع رجال المماليك يتعرض لعقوبة قاسية قد تودى بحياة البعض منهم . وكان الأمير حسين الكردى ، الذى أشرف على بناء سور جدة وتحصيناتها أعظم مثال لقسوة أمراء المماليك على التجار فى جدة ، إذ ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه كان يأخذ العُشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال(٨٥) . وعمله هذا كان من الأسباب التى دفعت التجار الهنود إلى الإنصراف عن النزول فى ثغر جدة ، وبذلك آل أمر الميناء إلى التدهور والخراب .

وقد ذكرت الروايات التاريخية ما قام به الأمير الكردى من بطش عندما كان فى جدة يشرف على تحصينها ، فكان يجبر الناس على تقديم أموالهم والمشاركة بأرواحهم وأجسادهم فى تعزيز التحصينات حول جدة ، ومن يتكاسل أو يتهاون فيما أوكل إليه كان يتعرض للعقوبات الصارمة من الأمير الكردى ،

---

(٨٤) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ ٤ ، ص ٣٥٩ .

(٨٥) انظر ، ابن إياس ، **بدائع الزهور** ، جـ٥ ، ص ٩٠ ، النهروانى ، **البرق اليمانى**، ص ١٩ وما بعدها - أحمد دراج ، **المماليك والفرنجة** ، ص ٥٧ ، السيد مصطفى سالم ، **الفتح العثمانى** ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وكثيرًا ما لجأ إلى عقوبة القتل أو الشنق لمن يبدو منه أى إمتناع أو مراوغة(٨٦) . وهذه السياسة التى سلكها الكردى انتقده فيها بعض المؤرخين ، حتى وصفوه بالقسوة والوحشية(٨٧) . ولو أن البعض إلتمس له العذر لإحساسه بفداحة الخطر البرتغالى وإدراكه أن دولة المماليك كانت تعانى فى آخر عهدها من أزمات مالية كبيرة .

وإذا كانت سفن البرتغال قد نجحت فى مياه بحر العرب والمناطق القريبة من باب المندب ، إلا أن التحصينات البحرية فى ميناء جدة لم يقدر للبرتغاليين النيل منها على الإطلاق ، سواء فى نهاية العصر المملوكى أو مع بدايات العصر العثمانى، مما يعنى أن تكاليف إنشائها مهما فاقت حدود وإمكانات الدولة والأهالى فإنها كانت فى النهاية واقيًا منيعًا ، أسهم فى سلامة البحر الأحمر ، وبالأخص ثغر جدة ، من السفن البرتغالية التى كانت ترفع راية الصليب على أشرعتها .

وإذا نظرنا إلى عامة موظفى الدولة المملوكية ، أو موظفى الإدارة العثمانية فى جدة بعد سقوط دولة المماليك نراهم أشد قسوة على أهل جدة وتجارها لما قاموا به من سلب ونهب فى أسواقها ، بل ما صدر منهم من فساد وخراب حتى إنقطعت الميرة عن جدة ومكة المكرمة ، وارتفعت الأسعار وانتشرت الأمراض ووقع القحط الشديد(٨٨) .

---

(٨٦) النهروانى ، **كتاب الأعلام** ، ص ٢٤٥ ، عبد القادر بن فرج ، **السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة**، ص ٥٥ - ٥٨٠ .

(٨٧) النهروانى، **البرق اليمانى**، ص١٩وللمؤلف نفسه، **كتاب الأعلام** ، ص٢٤٥٠.

(٨٨) يحيى بن الحسين .**غاية الأمانى** ،حـ ٢ ، ص ٦٢٦ - ٦٢٧ ، ٦٦٧ .

٣ - أدت إغارة بعض القبائل العربية على ميناء جدة ، وخاصة عشائر بني إبراهيم الذين كانوا يسعون إلى قطع الطريق على الحجاج ، بل وصل بهم الأمر في بعض الأحيان إلى تهديد التجار في ثغر جدة ، وسلب ما لديهم من أموال وسلع مختلفة . وقد بادر السلطان الغوري بإرسال قوات عسكرية أكثر من مرة لكي تردعهم وتفرقهم . ومن أعظم تلك القوات تلك الحملة التي قادها الأمير حسين الكردي في طريقه إلى جدة إذ إصطدم بهم وهزمهم وأخذ على زعمائهم المواثيق بعدم مهاجمتهم التجار في جدة .

* * *

وخلاصة القول أن العداء بين الشرق والغرب في تلك الحقبة يمثل صراعًا بين اتباع عقيدتين هما الإسلام والمسيحية ، بمعنى أنه كان مظهرًا من ذيول الحروب الصليبية . وما لمسناه في هذا البحث من خروج البرتغاليين من بلاد غرب أوربا نحو الهند ثم عملهم باستمرار للدخول إلى البحر الأحمر لكي يسيطروا على موانيه، وخاصة ميناء جدة الذي يوصلهم إلى مقدسات المسلمين في الحجاز ، ليس إلا أسلوبًا جديدًا من أساليب الصليبيين التي استهدفوا من ورائها السيطرة على ثروات المسلمين ، ثم نشر معتقداتهم في أراضي المسلمين ، وأخيرًا السيطرة على مقدسات المسلمين لإذلالهم . وهذه محاولات ليست جديدة على المسلمين فقد رأينا الصليبيين الأوائل يأتون إلى بلاد الشرق الأدنى منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر للميلاد وهم يحملون نفس المبادئ التي جاء بها البرتغاليون، لكنهم عادوا مدحورين دون أن يتحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه .

وهكذا غدا البحر الأحمر ميدانـا واسعًا مـن ميـادين الحـروب الصليبيـة فـى عصرها الأخير . وفى هذا الميدان برزت أهميـة جـدة الدينيـة والاقتصادية لتكـون قاعدة كبرى ، بل القاعدة البحرية الأولى التـى صمـدت أمـام غـزوات البرتغـاليين دفاعًا عن الحرمين الشريفين .